مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد 14،العدد01 – 2023 / ص ص:49- 64

التفسير السيكولوجي للدين عند فويرباخ

Feuerbach's Psychological Interpretation of religion

عبد النور خشعي[1*]، مختار عريب[2].
[1] جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، abdenour.khechai@univ-alger2.dz
[2] جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، aribmokhtar@hotmail.com

تاريخ الاستلام : 2022/12/08 ؛ تاريخ القبول : 2023/01/20 ؛ تاريخ النشر : 2023/01/31

الملخص

ان الدّين الإنساني عند فويرباخ يقوم على اساس سيكولوجي وليس تاريخي قائمٌ على الشّعور بالتّبعيّة، فالشّعور هو أساس الدّين. والقلب هو جوهر الدّين فالإنسان بطبيعته كائنٌ متديّنٌ، ومن هنا يمكننا فهم الغموض الّذي يعترى طبيعتنا البشريّة. وهذا التّفسير السّيكولوجي للدّين مرتبط أساسا بفكرة الإسقاط او ما يسمى بالاغتراب الديني اي ان الدين اسقاطات لا إرادية لرغبات وللصفات الجوهرية للطبيعة البشرية كما النقد الديني عند فويرباخ يتعلق في جوهر بالتفسير السيكولوجي الذي تعود اصوله الى ثلاثة مصادر جوهريّة تفسّر معنى ومفهوم الدّين الإنساني عند فويرباخ هي الخوف والحبّ والشّعور بالتّبعيّة .

الكلمات المفتاحية: فويرباخ؛ السيكولوجي؛ الدين؛ الاسقاط؛ الرغبة؛ الخوف؛ الحب؛ الشعور بالتبعية

Abstract

The human religion of Fuerbach is based on psychological rather than historical basis, based on a feeling of dependence. Feeling is the basis of religion and heart is the essence of it. Human is inherently a religious being, and hence we can understand the ambiguity that considers our human nature.

This psychological interpretation of religion is essentially related to the idea of projection or so-called religious alienation. That is, religion is an involuntary projection of wishes and essentials of human nature, as the religious criticism of Fuerbach relates in essence to psychological interpretation, which has its origins in three fundamental sources that explain the meaning and concept of human religion of Fuerbach, these sources are fear, love, and feeling of dependence.

Keywords: Fuerbach; psychology; Religion; projection; Desire; Fear; Love; Feeling Dependent

* عبد النور خشعي

مقدمة:

يؤكد فويرباخ في ملاحظاته الأخيرة في جوهر المسيحية أن تاريخ المسيحية لم يكن له مهمة أخرى سوى الكشف عن أن الأنثروبولوجيا هي سر اللاهوت وقبل كل شيء "إدراك اللاهوت والاعتراف به كأنثروبولوجيا". ومن خلال الأنثربولوجيّة، يأخذ فويرباخ إلى أن فكرة الله لا وجود لها خارج الصّفات الإنسانيّة، والّتي يسقطها الإنسان في كائنٍ سامٍ متعالٍ مفارقٍ عنه. هذا التّفسير هو نتيجة شعور وتوهّم الإنسان بالنّقص والعجز والضّعف إلى درجة احتقار نفسه هذا التّفسير يجعل فويرباخ سباقًا لفرويد في التّحليل السّيكولوجي للدّين. حيث نجد ان فلسفة الدّين عند فويرباخ قائمةٌ على الشّعور بالتّبعية، فإذا كانت الحواس مصدر الإدراك والنّظرية المعرفيّة، فإنّ الشّعور هو أساس الدّين. لان العصور التاريخية للجنس البشري تتميز عن بعضها البعض اذن على اساس التغيرات الدينية ويمكن فهم اصول الحركة التاريخية فقط الى المدى الذي يتم فيه اكتشافها في قلب الانسان والقلب ليس شكلا (إطارا) للدين بل هو الجوهر الحقيقي له فعلى الصعيد الانثروبولوجي القضية تتصل بجوهر ديني وهمي يكفي ان نلغي هذا الوهم حتى نمنح الإنسان إنسانيته ونحقق السلام مع النوع فكيف وصل إلى هذا التّفسير؟ وما هي هذه الجذور السّيكولوجيّة للدّين الإنساني عند فويرباخ؟

1- الدين عند فويرباخ من الاسقاط الى الرغبة

أ-نظرية الاسقاط

يرى فيورباخ أنّ التّديّن هو الّذي يميّز الإنسان عن الحيوان ويرجع هذا التّمييز إلى أن الإنسان لديه شعورٌ أو وعيٌ بالمعنى الدّقيق والمقصود بالوعي القدرة على التّفكير الواعي في الآخرين ،وفي النّفس أيضًا، والتّفكير في النّوع ككل، واتخاذ الإنسان نفسه موضوعًا للفكر لا الطّبيعة المحددة، أو المتناهية، وإنّما الطّبيعة اللّامتناهية .

فما هي مكونات هذه الطّبيعة اللّامتناهية ؟ او ما هو هذا الجوهر الإنساني الذي يعيه الإنسان او بالأحرى ما الذي يشكل نوع وإنسانية الإنسان ؟ تتمثل هذه المكونات في قوة الفكر ،وقوة الإرادة، وقوة الحب، لكي يكون الانسان مكتملا ينبغي له ان يجوز على قوة الفكر وقوة الارادة وقوة القلب فقوة الفكر هي نور المعرفة، وقوة الإرادة هي طاقة الشخصية، وقوة القلب هي الحب . العقل، و الحب، و الإرادة هي ضروب كمال ،وهي القوى السامية،وهي الجوهر المطلق للإنسان بوصفه إنسانًا، وهي كذلك غاية وجوده. يوجد الإنسان لكي يعرف ، لكي يحبّ ، لكي يريد .(Feuerbach, 1968, p117,119).

فحين يقارن الإنسان بين معارفه وقوته المعنوية، بين الأفعال الإنسانية بأسرها ومعرفتها، أو يقارن بين ضعفه وبين القدرة الكلّيّة للطّبيعة، يراوده الاعتقاد بأنّه قد لامس حدوده الخاصّة. وهو إذا يقتنع بعجزه عن تحقيق الصّحيح، والخير، والحبّ بوسائله الخاصّة. ونراه يسقط هذه الصّفات الجوهريّة الإنسانيّة - اي «المحاميل » كما يسميها فيورباخ - خارجه لكي يحوّلها إلى كائن أعلى يطلق عليه اسم الله (آفرون، 1981، ص37)

اي لما أدرك الإنسان أنّه لا يستطيع بقواه الخاصّة أن يحقّق الحقّ والحبّ والخير أسقط هذه الصّفات على إلهٍ ووصفه بهذه الصّفات. لقد نقل الإنسان آماله إلى كائن ذي درجة عليا سماه «الله». وفقا لفيورباخ ، فإن ما نسميه الله في الدين ليس سوى الشخصية المسقطة للإنسان.

اذا فالفرضية المركزية عند فويرباخ، هي أن الله ليس سوى إسقاط لطبيعة بشرية كاملة. يكتب: "الإنسان - هذا هو سر الدين – كينونته الموضوعية او يموضع كينونته، ثم يجعل من نفسه مرة أخرى موضوعا

لهذه الكينونة التي جعلها موضوعية او الكائن الموضع المحول الى ذات الى شخص"(Feuerbach, 1968 ,p 147-148).

"إن الوعي [البشري] اللانهائي هو ليس غير وعي لانهائية الوعي وبطريقة اخرى نقول في وعيها للانهائية الكينونة الواعية تعي لانهائية كينونتها الخاصة"(Feuerbach, 1968, p118). بعبارة أخرى، عندما يتحدث الإنسان عن الله، فإنه يتحدث حقًا عن نفسه. وفي نظر فويرباخ، هذا واضح تمامًا. فالإنسان، هذا الكائن الذي أفقه غير محدود، والذي يستطيع أن يسأل ويتجاوز أي شيء من خلال عملية التراجع او النكوص التي لا يمكن إغلاقها بشكل أساسي، يصبح دائمًا، في فكره، موضوع تفكيره. اي يمكن للإنسان، في التفكير، أن يعارض كيانه لنفسه.

وعليه فمفهوم "الإلهي" أو "الله" كان في الواقع مجرد إسقاط بشري؛ يقول فويرباخ: غرض الحواس هو في حد ذاته حيادي ومستقل عن ميلنا وحكمنا؛ لكن غرض الدين هو غرض متمايز ومنتقى؛ الكينونة الأفضل، الأولى والأسمى؛ يفترض أساسًا حكمًا نقديًا، وتمييزًا بين ما هو إلهي وغير إلهي، بين ما يستحق العبادة وما لا يستحق. انه في هذا السياق اذن البيان التالي صحيح دون قيد او شرط يمكن تطبيق الافتراض، إن غرض الانسان ليس سوى كينونته الموضوعية ذاتها فكما يفكر كما يكون فهمه للأشياء كذلك يكون إلهه (Feuerbach, 1968, p129).

ما يقوله فويرباخ هو أن فكرة الله تنبع من انفصال الإنسان عن طبيعته واسقاطها، ومن تحويل البشر طبيعتهم الذاتية إلى شيء مستقل وخارج أنفسهم. إن أصل تجسيد الطبيعة البشرية إلى الله، حسب فويرباخ، هو الرغبة في الراحة والأمان والمعنى: "ينبع الله من الشعور بالعوز؛ لذلك فإن ما يحتاج اليه الانسان سواء أكان حاجة محددة ومن ثم حاجة واعية أو غير واعية - وهذا هو الله. وهكذا فإن الشعور البائس والكئيب بالفراغ، بالوحدة، بحاجة إلى إله يوجد فيه جماعة، اتحاد بين الكينونات يحب أحدها الاخر بشعف" (Feuerbach, 1968, p129)

ما يجب ملاحظته هنا هو أن فويرباخ يقول إن الأفراد هم من يسقطون، لكن ما يسقطونه هو تحقيق واكتمال كل الصفات البشرية؛ إنهم يسقطون إمكانات وقدرات وقوى جميع الأنواع البشرية او الجنس البشري: يقول "الله هو الفكرة عن النوع كفرد -فكرة أو جوهر النوع، الذي بوصفه نوعا، بوصفه كينونة فردية كلية وكونية، بوصفه مجموع كل الكمالات، وكل الصفات أو الحقائق، المتحرر من كل الحدود والقيود الموجودة في وعي الفرد وشعوره هو يكون في الوقت نفسه كينونة شخصية فردية".(Feuerbach, 1968, p 293)

يخلص فويرباخ إلى أنه كجزء من الجنس البشري، ينظر الأفراد الواعيون إلى طبيعتهم البشرية مجردة من المحدود ويضعون عليها لقب "الله"، وبالتالي ينسبون إلى الله جميع الصفات البشرية الكاملة. ويقول فويرباخ في مقدمة كتاب جوهر المسيحية (1841)، وأنه لا يتعامل مع اللاهوت "باعتباره براغماتية صوفية كما هو الحال في الأساطير المسيحية، ولا باعتباره انطولوجيا، كما هو الحال في الفلسفة التأملية للدين، بل بالأحرى باعتباره علم الأمراض النفسية".(Feuerbach, 1968, p 92)

بعبارة أخرى، الدين هو العَرَض الناتج عن إسقاط الرغبات في السماء التي تنشأ استجابةً لحرمان الإنسان ومعاناته الملموسة. ويتبع العلاج الموصوف للأعراض من مسبباته: يجب على المرء محاولة معالجة

المعاناة التي تسبب الإسقاط المرضي في المقام الأول. أي ان الدين مرضًا نفسيًّا يعبر عن اهتزاز شعوري وارتجاج في المخ وهلوسة واضطراب.

ويسمّي فويرباخ منهج كتابه منهج الكيمياء التحليلية أي تحليل النصوص من أجل إضفاء الشرعية على الاستنتاجات التي توصل إليها التحليل أي لإثبات أساسها الموضوعي. لذلك إذا وجدنا نتائج الطريقة التي استخدمها المؤلف صادمة وغير مشروعة فيجب أن نكون منصفين بما فيه الكفاية لنرفض فالمسؤولية لا تقع على الباحث فويرباخ بل تقع على عاتق الموضوع ذاته. (Feuerbach, 1968, p92)

ويذكرنا الكثير من النقد النفسي للدين بحجة فويرباخ الاساسية: الدين هو الطبيعة البشرية معكوسة ومنعكسة في الله مرآة ذاتها...حيثما يكون الوجود ممنوحا هناك ايضا سلطة واهمية دينية تمنحان له وهناك ايضا تعالي بالفعل الى تلك المرحلة التي يمكن له فيها ان يعكس ذاته في المرآة وينعكس بذاته فيما يكن ان يسقط صورته الخاصة كإله الاله هو مرآة الانسان. (Feuerbach, 1968, p 187-188)

ويبدو هذا الأمر كما لو كنا في كهف أفلاطون، هذه المرة فقط الظلال الملقاة هي آلهتنا ونحن نسلط الضوء على طبيعتنا الموضوعية

ويقول فويرباخ في محاضرات في ماهية الدين (المحاضرة 23): "ينشأ الدين فقط في ليلة الجهل، وفي أوقات البؤس، والعجز، والثقافة البدائية عند هذا السبب بالذات، يحجب الخيال ويطغى على جميع قوى الإنسان الأخرى، حيث يسلي ويستمتع الإنسان بالأفكار الأكثر وحشية وعنفا والأكثر غرابة وتطرفا". (Feuerbach, 1967, p 209)

إن وجود الإنسان على الأرض مليء بالألم، والإحباط، والفشل، والقلق، والظلم الذي يكسر ويفطر القلب، والوعي بمحدوديته واقترابه من الموت. لكنه يتوق إلى كمال غير المحدود، وسعادة كاملة، وحياة أبدية. لذلك فهو يفترض وجود إله يدرك ويحقق له في عالم آخر الرغبات التي أحبطت على الأرض والشرور المدمرة للغاية هنا. لكن هذا الإله ما هو إلا التخارج الوهمي للآمال البشرية كما ان هناك تشابه بين العقيدة الدينية والاحلام فالدين كما يقول فويرباخ: "هو حلم الروح الإنسانية غير انه في الحلم أيضا نجد أنفسنا ليس في العدم، أو في السماء بل على الأرض في مملكة الواقع، وأننا نرى الأشياء الواقعية ليس في ضوء الواقع، والضرورة، وإنما في المظهر الشيق للخيال، والتعسف كذلك كل ما فعلته للدين (وكذلك للفلسفة، أو اللاهوت النظريين) هو أنني:فتحت عينيه، أو بالأحرى أدرت نحو الخارج عينيه الموجهة للداخل بتعابير أخرى أنا اكتفي بان أحول موضوع التمثل، أو الخيال إلى موضوع للواقع".(Feuerbach, 1968, p 119)

وهكذا نجد الشعور ، مثل الإرادة والعقل ، هو ملكة بشرية وبالتالي حسية . والخيال هو العضو بامتياز الذي يتم من خلاله التعبير عنه كما يعتبر الخيال هو تعبير عن احتياجات الإنسان ومشاعره . الخيال يموضع موضوع الشعور في شكل تمثيل فوري أو ملموس ، أي كموضوع ذي معنى فالشعور هو الحلم بعيون مفتوحة والدين حلم وعي اليقظة والحلم المفتاح لأسرار الدين . "(Feuerbach, 1968, p 278).

فالخيال مخادع وهو دائما يخدع العقل ودائما في خدمة الرغبة. أن فكرة الله مركب من صفات البشر أي إن الإنسان عندما يكون عابدا يكون عابدا كمالاته نوعه هو فعلم اللاهوت هو علم الانثروبولوجيا . إنّ

الإنسان خلق الله على صورته يقول فيورباخ: " يخلق الإنسان أولا الله على صورته ،ومثاله بغير إرادته، وعلى غير وعي منه ثمّ يخلق الله الإنسان على صورته، ومثاله بإرادته، وبوعي منه " (Feuerbach, 1968, p250).

ان الدين هو وعي الانسان الاول لذاته لكنه غير مباشر وهذا يعني أن "وعي الله هو الوعي الذاتي للانسان ، معرفة الله هي المعرفة الذاتية للانسان . "باختصار كما يكتب فيورباخ "فكرة الانسان عن نفسه هي فكرته عن الله تماما كما ان فكرته عن الله هي فكرته عن نفسه فالاثنتان منطابقتان"(Feuerbach, 1968, p129-130).

المعرفة الّتي لدى الإنسان عن الله هي المعرفة الّتي لدى الإنسان عن نفسه، عن ماهيته الخاصّة وحدها وحدة الماهيّة والوعي حقيقةً، هناك حيث يوجد وعي الله، توجد أيضا ماهية الله إذًا في الإنسان" (Feuerbach, 1968, p381-382). ويقول فيورباخ "ما يكون لله بالنّسبة للإنسان هو روحه نفسه وما هو خاص بالرّوح الإنسانيّة نفسها، قلبها هو لإلهها:الله هو داخليّة الإنسان الواضحة هو ذاته المعبر عنها، الدّين هو الاحتفال برفع الحجاب عن كنوز الإنسان المخبأة، إقرار أفكاره الأكثر ودّيّة، الاعتراف العام بأسرارٍ عن الحبّ" Feuerbach, (1968, p130).

فالدّين هو الماهية الإنسانيّة الّتي لا يوجد فيها شيء غير إنساني، ومهمّتنا يقول فيورباخ :« هي البرهنة أن التّعارض بين الإلهي، والإنسان هو تعارض وهمي بمعنى انه ليس شيئا أخر غير التعارض بين الكينونة و الجوهر الإنساني الجوهري ، وكينونته الفردية الإنسانية ، وان موضوع، ومحتوى الدين المسيحي هما بالنتيجة إنسانيان كليا» . (Feuerbach, 1968, p131). ولكي يعاد الإنسان إلى كينونته الحقيقيّة يجب تدمير الوهم الدّيني وأن تعاد إلى الإنسان الصّفات والمزايا المستلبة منه في الله

ب- الرغبة أساس الدين:

لقد كانت دراسة فويرباخ جوهر الايمان بحسب مارتن لوثر وسابقتها ا جوهر المسيحية تحاول تقديم دليل موثق يدعم حقيقة يدعم الطرح القائل ان اسس فكرة الاله المسيحي كان ببساطة تجريدا مكونا من مفاهيم غالية على قلب الانسان ما كان يرغب به الانسان على نحو ماس على الارض خلقه لنفسه في السماء مضيفا على الاله كل الصفات التي كان يرغب بها لذاته وقد حاول فويرباخ ان يظهر ان الافكار الدينية جعلت من خير الانسان هدفها النهائي (فويرباخ، 2017، ص 107-108).

فقد حاول هذين الكتابين بيان الجوهر والاساس الانساني للدين وان الالهة تمثل مشاعر وافكار الانسان الداخلية وتعد تعبيرا عن احلامه وامانيه وهكذا فالإله – أو الكينونة الإلهية – هو ببساطة الكينونة التي تعبّر عن الأمنيات البشرية (أي، بالأحرى، المسيحية)، تعد بها، وتجعلها موضوعية، والتي بؤرتها هي الأمنية بالمباركة. وهكذا فالإله ليس غير جوهر القلب البشري – أو، بالأحرى، الشعور – يُجعل موضوعياً لذاته باعتباره الكينونة الأسمى، الأكثر حقيقية، والأكثر فعلية (فويرباخ، 2017، ص222).

إن الله هو مباركة الانسان باعتبارها كينونة فعلية المباركة اشباع الرغبات الفردية البشرية هي الغرض الاسمى للإيمان المسيحي وهكذا فجوهر الايمان بوصفه متمايزا عن الحب كما ذكرنا سابقا هو جوهر حب الذات البشري وحين يتطلب الايمان احيانا تضحيات من الانسان فهذه ليست غير تضحيات للخير المؤقت لصالح خير ازلي بلا حدود حيث اعترف لوثر ان السبب الذي يجعل البشر يؤمنون بالاله هو انه يمكن لهم ان يتأكدوا من اشباعهم رغباتهم الخاصة ان هدف وبداية ونهاية الايمان هو الانسان والسؤال الذي اجاب عنه فويرباخ

بصراحة هو ما هو الإله؟ الإجابة. الإله هو ذلك الذي على المرء أن يتوقع منه كلّ شيء جيد، والذي على المرء أن يلجأ إليه في أوقات الحاجة. لذلك، أن يكون لك إله هو ببساطة أن تؤمن به وتثق به من القلب؛ كما قلت في كثير من الأحيان، إن ثقة القلب وإيمانه يخلقان الإله والإله المزيف على حدّ سواء. كل ما تعلّق قلبك عليه وتثق به، فذلك في الواقع إلهك. الإله هو الأوحد الذي يتلقّى المرء منه كلّ الخير ويرتاح من كل البلايا (فويرباخ، 2017، ص152-153).

فالله هو الذي يتطلع الى منفعة وخير البشر ومن صفات الله انه خالق وكلي القدرة ومن ثم فهو جوهريا يلبي رغبات البشر ومن هنا، إنه الإله الذي يمكن تخليصي من كل الشرور المعنوية وكذلك الماديّة، الذي يمكنني الاعتماد عليه بلا قيد أو شرط في كل أوقات الحاجة.

فالرّغبة هي في الأصل جوهر الدّين وجوهر الآلهة ليس إلّا جوهر هذه الرّغبة حيث كانت الآلهة القديمة خيرة، وكان الخير هو النّتيجة والثمرة، وغاية الفعل الذي أرغب، وهو منفصل عني. ويقول لوثر أن نبارك شيئًا، أن ترغب شيء خيرًا وإذا باركنا فإننا لانفعل شيئًا آخر سوى أنّنا نتمنّى شيئًا خيرًا، ولكنه ليس في إمكاننا أن نحقّق رغباتنا بذاتنا وإنما يحققها الله ويثبت تأثيرها. وهذا يعني أنّ النّاس كائنات قادرة على التّمنّي، أمّا الآلهة فهي تحقّق هذه الأماني "ان جوهر الدين اللاهوت هو ببساطة جوهر الرغبة". (Feuerbach, 1967, p 247) وهكذا، فيما يتعلق بالرغبة، يقول إنه يجد أساسه في إرادة الإنسان في مواجهة ما يطغى عليه ويزعجه أو في رغبته في أن يكون سعيدًا. ويقول في كتابه محاضرات في ماهية الدين في المحاضرة رقم (27): "جميع الأديان، وخاصة تلك التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الحضارة الإنسانية، كانت معنية فقط برفاهية الإنسان" (Feuerbach, 1967, p249).

لم يتم تحليل موضوع السعادة حقًا في جوهر المسيحية، ولكن بشكل عام، يفصل فويرباخ هذا الموضوع بشكل أفضل في دروسه. في جوهر المسيحية يسلط الضوء الله الإنسان لا يرى ولا يؤمن سوى بنفسه. هذا في الواقع فقط نتيجة إسقاط رغبات المرء. ويوضح ذلك في محاضرات حول جوهر الدين: "لا يحول الإنسان كل تصوراته وأفكاره ورغباته إلى كائنات، ولكن بشكل رئيسي تلك التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بطبيعته الخاصة، والتي هي حقيقية بالنسبة له مثل كيانه لأنه تعبيرها المميز؛ التي لها طابع الضرورة بالنسبة له على وجه التحديد لأنها متجذرة في طبيعته الأساسية..." (Feuerbach, 1967, p 253).

من خلال جعل السعادة الهدف النهائي الذي يسعى إليه الدين، يأتي Feuerbach لتصنيف الرغبات، كما كان الحال بالفعل مع Epicure. في الدرس الثلاثين أكد أن "الله هو تحقيق أو واقع الرغبات البشرية، بقصد البحث عن السعادة"(Feuerbach, 1967, p 277).

من خلال مواصلة تحليله، يقوم بتصنيف الرغبات، وهذا ليس هو الحال على الإطلاق في جوهر المسيحية. وهكذا يميز نوعين من الرغبات: "وأنا أؤكد على أن الرغبات التي تتحقق فقط في الخيال، أو منها وجود كائن خيالي مستنتجة، هي رغبات وهمية، وليست الرغبات الحقيقية لقلب الإنسان"(Feuerbach, 1967, p277). ان للإنسان رغبات كثيرة، بعضها حقيقي وبعضها خيالي وهمي. في الدين، يوجد الإنسان في سجل الرغبات الخيالية، وبهذا يتم الغاء حدود البشرية فالرغبات الخيالية مثل الانتقال الى كواكب اخرى او الرغبة في العلم المطلق والكمال المطلق

إن السعي المعقول والطبيعي من أجل السعادة لا يتجاوز طبيعة الإنسان، ولا يتجاوز حدود هذه الحياة، من هذه الأرض؛ إنها تهدف فقط إلى القضاء على تلك الشرور والقيود التي يمكن القضاء عليها بالفعل، والتي ليست ضرورية، والتي ليست جزءًا أساسيًا من الحياة"(Feuerbach, 1967, p 280). فعندما يتعلق الأمر بالسعادة، فإنه لا يزال يبحث عن الطريقة الأكثر طبيعية لتحقيق ذلك بمعنى ما، فهو يبحث عن طريقة لا تتجاوز طبيعته البشرية أو تتجاوزها صلاته مع الأرض "أما الرغبات التي لا تتعدى الإنسان وطبيعته، فهي لا تستند فقط إلى الخيال الفارغ أو الانغماس غير الطبيعي للعواطف، ولكن على حاجة حقيقية ودافع الطبيعة البشرية، تجد تحقيقها ضمن الجنس البشري وفي سياق التاريخ البشري."(Feuerbach, 1967, p 278) وعلى عكس هذا النوع من الرغبة هناك رغبات خيالية ورائعة، تبشر وتعد بها الإنسان بأشياء خارج إطار وجوده الحقيقي، الذي يعلمه الإيمان به الله حيث يبعده عن الواقع وبالتالي عن نفسه. ويرى فويرباخ في كتابه الثيوجونيا بان الله هو إسقاط للرغبات الذاتية للإنسان. وفقًا لذلك، لا يمكن تعلم أي شيء موضوعي من الفكرة الدينية عن الله باستثناء الرغبات والاحتياجات الأساسية للناس. يظهر الدين على أنه وهم، حلم لأناس بدائيين لا يتوافق مع وجهة نظر علمية وواقعية عن الطبيعة والإنسان. وهذا يجعل من الوهم الهدف الحقيقي لنقد الدين. ويصفه فويرباخ بأنه مرض لأنه يحرم الناس من "قوة الحياة الواقعية" و"يحرمهم من معنى الحقيقة والفضيلة.

حاول فويرباخ كما يرى افرون أن يعثر في مفهوم الله على العناصر الإنسانيّة، والطّبيعية فالإنسان إذ يصطدم بالقدرة الكلّيّة للطّبيعة يسقط على الآلهة رغبته في الانتصار عليها (أي على الطّبيعة) «ان ما لا يكونه الانسان حقا لكنه يرغب في ان يكونه يجعل منه إلهه او يكون هو إلهه بالفعل» ويضف افرون موجزا كتاب انساب الآلهة بقوله: "قل لي ماذا تعبد فأقول لك ما الذي ترغبه ان البحث عن السعادة هو ما يؤسس الدين" (آفرون، 1981، ص21، 54). ومن المؤكد أن الرغبة هي الفكرة الأساسية في جوهر المسيحية كما في الثيوجونيا. فقد أدعى الإنسان أنّ رغباته يمكن الحصول عليها، ولكي يجعل هذا الافتراض صحيحًا نظر البشر إلى آلهتهم على أنهم المكمّلون والضامنون للرّغبات البشريّة. وعلى هذا فإنّ نشأة الآلهة لا تكمن في اعتماد سلبي على الطّبيعة، والبشر، ولكن تكمن في حافز إيجابي يقوم على افتراض أنّ الرّغبات والأماني البشريّة تتّفق، وطبيعة العالم.

ويعبر فويرباخ عن أطروحته الرئيسية التي تظهر في الكتاب بأشكال مختلفة: رغبة الإنسان هي أبو الآلهة. أو يتم التعبير عنها بشكل مختلف: الآلهة تمثل حب الإنسان لذاته وتشبع وتحقق الرغبات البشرية. (Walther, 2003, p141-152)

يرى فويرباخ: في كل رغبة يوجد إله مخفي، ولكن أيضًا في كل إله وخلفه، لا يوجد سوى رغبة خفية فقط. بين الصلاة والرغبة، بالمناسبة، لا يوجد فرق آخر في أن الصلاة هي رغبة موجهة في الآلهة على الفور، في شكل طلب، وبالتالي مع الإذلال والتعبير عن الخشوع والتبجيل، وإذا كانت مسألة ذات أهمية خاصة، رغبة مرتبطة بالتضحيات والوعود، والتعهدات، والالتزامات، والنذور.(Walther, 2003, p141-152) يقول فويرباخ "ينبع الله من الشعور بالحاجة والعوز"(Feuerbach, 1968 ,p 199)، أي أن الله ليس سوى تحقيق رغباتنا الداخلية والأكثر مركزية ويؤكد فويرباخ في كتابه الثولوجيا او انساب الالهة بان الرغبة والأمنية هي المظاهر

الأصلية للآلهة. حيث تظهر وتولد الرغبات والأماني، نعم، هناك، حيث يتم خلق الآلهة-(Walther, 2003, p141 152).

ان جذور الدين واصل ايمان الإنسان بالله (الله) وصلاته له هناك تكمن رغبته وأمنيته ويستشهد فويرباخ بقول إيبكتيت: ("حيثما توجد فائدة ومنفعة، يوجد ثمة تقديس") كما أن نفي الرغبات والأماني من قبل الآلهة مرتبط بجوهر الرغبة أو الأمنية في حد ذاتها (بما أنهم إذا لم يرفضوا (بدلاً من ذلك: رفض) رغبات أو والاماني، فلن يستطيعوا أيضًا منح أي منها، نظرًا لوجود عدد لا يحصى من الرغبات التي لا يمكن منحها دون رفض رغبات الآخرين). وكما ان الاختلاف في الرغبات هو فرق واختلاف بين الآلهة. ... تحدد هذه الرغبة جوهر الآلهة، وهذه الرغبة تقرر مصيرهم، لأنه بمجرد أن يكون لدى الإنسان رغبات مختلفة، لم تعد الآلهة القديمة أيضًا مناسبة، فقد خلق أخرى جديدة. والافتراض الأساسي الملخص للكتاب بأكمله: "[الإنسان هو الكائن السعيد بالرغبة، في الأمل، الله، الكائن السعيد في العمل، في الواقع؛ الإنسان هو الرغبة في السعادة، والله هو الرغبة الراضية والمحققة؛ الإنسان هو الرغبة في النعيم، والله المُشبع والمنجز والمحقق، أو بالأحرى: تحقيق وإرضاء هذه الرغبة.](Walther, 2003, p141-152) كما أن قوة الآلهة ،حسب فيورباخ ، تشكل قوة رغبات وتطلعات الإنسان لأن الآلهة "تنفذ" و "تنفذ قوانين قلب الإنسان"؛وتحقق أهدافه الآلهة هي تجسيد لرغبات الإنسان وإذا تحطمت القيود الطبيعية لقلب الإنسان وإرادته يصير الإنسان كائنا ذا قوة غير محدودة تعادل قدر المحسوسة قدرة الإرادة، (فويرباخ، 1991، ص 78). لذلك فإن الآلهة هي رغبات الإنسان التي تتحقق وراء كل الحدود الطبيعية. هذا هو السبب في أن "الإنسان في الدين في الهواء الطلق تحت الإله في الوعي الحسي هو في بيت محصورا وضيق (Feuerbach, 1968 ,p 366)، فالإله والدين بصفة عامة تصور تمليه الرغبات واحتياجات البشر فالإله هو انجاز لرغبات البشر العميقة والأكثر مركزية

3- الأصول النفسية للدين الانساني عند فويرباخ :

تتعلق هذه الاصول النفسية لتفسير الدين عند فويرباخ بثلاثة مصادر جوهريّة تفسّر معنى ومفهوم الدّين الإنساني عند فويرباخ هي الخوف والحبّ والشّعور بالتّبعيّة

1- الخوف مصدر الدّين:

يرى فويرباخ أن أوّل التّفسيرات لمصدر الدّين هو الخوف، وقد جعله الكثير من القدماء والمحدثين على حدّ سواء أساس الدّين. وكما قال الشّاعر الرّوماني.

Primus in orbe Deos fecit Timor الخوف هو أوّل من خلق الآلهة في العالم. فعند الرّومان كلمة الخوف تحمل معنى الدّين، وكانت كلمة Religio تشير أحيانًا إلى الخوف والرّعب والرّهبة. وهكذا كان اليوم الدّيني يعني يومًا سيء الحظ، ويومًا يخشاه ويخافه النّاس. حتّى في اللّغة الألمانيّة فإنّ كلمة Ehr Furcht تعني الرّهبة وتعبّر عن منتهى احترام الدّين وتتكون من: Ehre أي الاحترام والمقطع الثّاني: Furcht أي الخوف. وتفسير الدّين بالخوف تؤكّده حقيقة الشّعوب البدائيّة، فقد كانت تخشى الجوانب المخيفة في الطّبيعة، وكانت الشّعوب البدائيّة في إفريقيا وشمال آسيا وأمريكا تخشى وتخاف من الأنهار وبعض الأماكن، حيث أنّها تشكّل دوامات خطرة. وعندما تنتقل في مثل هذه الأماكن فإنّها تناشد الرّحمة والغفران وتقدّم التّضاحي إلى الإلهة الغاضبة. ويرى فويرباخ أنّ الرّحالة المؤلهون أن قبائل Hottentots تؤمن وتعتقد في المخلوق ذي القدرة الخالقة، لكنهم لا

يعبدونه وإنّما يعبدون الرّوح الشّريرة الّتي يعتبرونها مصدر كلّ الشّرور الّتي تحيط بالإنسان في العالم. وبعض القبائل الأمريكيّة تعبد الأرواح الشّريرة فقط الّتي يعزى إليها الشّرور والمتاعب وجميع الأمراض والآلام، ويفعلون ذلك بدافع الخوف. وفي الهند أيضا يعبدون الأرواح الشّريرة ولكلّ روح شريرة اسمًا خاصًّا بها، وكلّما كانت هذه الرّوح أكثر قوّة وجبروت زادت عبادتها.(Feuerbach, 1967, p 26)

من هنا تعود نشأة الدين إلى جذور نفسية أولها الخوف من القوى الخفية، وحاجة الإنسان إلى التوصل إلى أسباب الظواهر، ويرتبط الدّين بالخوف من الموت كذلك، ويسميه فويرباخ شعور الإنسان بالمحدوديّة، هو شعورٌ أو الوعي بأنّه يوم ما سوف ينتهي وسيموت، وإذا لم يمت الإنسان، وإذا كان يعيش إلى الأبد، ولو لم يكن هناك شيء مثل الموت لن يكون هناك أي دين، ولن يكون هناك ما هو أقوى من الإنسان كما يقول سوفوكليس في أنتيغونه Antigone؛ إنه يبحر في البحر، يحرث الأرض، يروّض الحيوانات البرية، يحمي نفسه من الحرارة والمطر، يجد إجابات على كل موقف من الموت وحده لا يعرف مهرباً. بالنسبة إلى القدماء الإنسان مرادف للفاني، اللّه للأزلي. لهذا أقول في ملاحظاتي حول جوهر الدين إن قبر الإنسان هو مسقط رأس الآلهة الوحيد . (Feuerbach, 1967, p 33)

إذا الخوف أوّل أمّهات الآلهة، وخصوصًا الخوف من الموت. لذا كان الخوف هو الأساس الكامل والكافي لتفسير مصدر الدّين، إلا أن الخوف عاطفةٌ عابرةٌ، والسّبب الحقيقي في أنّ الخوف لا يعطي تفسيرًا كاملًا للدّين، هو أنّه بمجرّد زوال الخطر، فإنّ الخوف يستبدلّ بعاطفة عكسيّة، وهذه تلتصق به كما يلتصق به الخوف، وهذا الشّعور بالتّحرر من الخطر والخوف والقلق هو الشّعور بالبهجة والفرح والحب والامتنان، والواقع أنّ ظواهر الطّبيعة الّتي تثير الخوف والفزع بوجه عام، هي المظاهر الّتي تعود على الإنسان بالخير والفائدة، فالخوف وحده لا يخلق الآلهة وإنّما الحبّ والسّعادة، والفرح، والامتنان والتبجيل هم صنّاع الآلهة (Feuerbach, 1967 ,p 29-30).

وهكذا أضحى الإغريق في Titane للرّياح بتهدئة روعها، وبنى الرّومان معبدًا للحمى حتّى يتّقوا شرّها. هكذا صلّى Tungusians في وقت الوباء بإخلاصٍ وورعٍ لهذا المرض الّذي كاد يؤدّي بحياتهم وبنفس الطّريقة ضحى الـ widahians في غينيا للبحر، وتوسّلوا إليه بأن يهدأ وإن لم يمنعهم من اصطياد الأسماك. وهكذا خاطب الهنود الوجود، الله، الرّوح عند قدوم الرّيح عند معبر مياه Manitou، وتوسّلوا إليه أن يحميهم من كلّ الأخطار (فويرباخ، 1991، ص 80-81).

وبسبب الخوف من الأمراض والأوبئة... حرص الرّومان على القيام باحتفالات دينية أعطوها اسمOrbone والكارثة. ومن الواضح أنّ مثّل هذه العبارات، كما يقول فويرباخ، ليس لها أساسًا أو دافعًا سوى الخوف، ولا غرض لها سوى تجريد الآلهة المعادية من أسلحتها، ووقف إيذائها. فالنّاس يعبدون الآلهة بأمل مساعدتها لهم وكانوا يهدئون من روع بعض الآلهة كي يمتنعوا عن إيذائهم. فقد كان للخوف معبد عند الرّومان ومعبد آخر في اسبرطة الّتي كان لها، كما يقول بلوتارك، تمييز أخلاقي ألا وهو الخوف من الشّر والأعمال المشينة (Feuerbach, 1967 ,p 27).

والمسيحيّون أيضًا، ورغم عزوهم طبيعة غير حسّيّة ومصدرًا سماويًّا للدّين، تنتابهم نزعة دينيّة في المواقف واللّحظات الّتي تثير الخوف، مثال ذلك أن صاحب الجلالة ملك بروسيا فيرديك وليم الرّابع أصدر

مرسومًا شرّع الصّلاة في جميع الكنائس، ويرجع السّبب في ذلك إلى الخوف من شرور العصر الحديث أن تقف في طريق مخططاته ومشاريعه. وعندما كان الحصاد ضعيفًا في سنواتٍ سابقةٍ، كان النّاس يتضرّعون إلى الله في الكنائس، والسّبب كان الخوف من الجوع والمجاعة. والفرق الوحيد بين المسحيّين والشّعوب البدائيّة هو ما يسمى وثني أو عبادة الأوثان، فالمسيحيّين لا يجسّدون الظّواهر الطّبيعية الّتي تثير الخوف الدّيني في نفوسهم الآلهة الشّر، وإنّما يصلّون إلى الله عندما يعتقدون أنّه غاضبٌ منهم أو سيغضب منهم. بينما الأرّواح الشّريرة هي تقريبًا الكائنات الوحيدة للعبادة عند الشّعوب البدائيّة (Feuerbach, 1967 ,p 28-29).

فالشّعور بالخوف، إذن، هو التّعبير الأوسع انتشارًا والأشدّ وضوحًا عن التّبعية، وهذا الشّعور بالذّات يقوم في أساس العقائد سواء عقائد المتوحّشين البدائيّين أم عقائد الشّعوب المتمدّنة، بما فيها أتباع الدّين المسيحي وسائر الأديان العالمية (كوزنيتسوف، 1987، ص91-92).

إن ويلات الحروب وفظائعها، مثلها مثل الكوارث الطّبيعية، تجبر النّاس على التّوسّل من الرّبّ، وتخلق المشاعر الدّينيّة. ويحلّل فويرباخ ظروف نشوء العبادة الدّينيّة وظهور مختلف الطّقوس الدّينيّة كالصّلاة، النّدم، التّضحيّة... الخ ويشير إلى أنّ النّاس ينظرون إلى الإله كما اعتادوا أن يروا إلى حكامهم، وإنّهم يسعون إلى كسب رحمة الرّبّ بنفس الوسائل الّتي يسعون بها إلى استمالة حكامهم بواسطة التّضرّعات والتّضحيات والتّقديمات (كوزنيتسوف، 1987، ص 92-93). وهكذا يشكّل الموت بشكلٍ خاص، ويولد الخوف الإيمان بالله (لينين، 1974، ص51).

وهكذا يرتبط الدّين بالخوف من الموت، ويسميه فويرباخ شعور الإنسان بالمحدوديّة، هو شعورٌ أو الوعي بأنّه يوم ما سوف ينتهي وسيموت، وإذا لم يمت الإنسان، وإذا كان يعيش إلى الأبد ولو لم يكن هناك شيء مثل الموت لن يكون هناك أي دين، ولن يكون هناك ما هو أقوى من الإنسان. ويقول سوفوكليس في أنتيجون أنّه يبحر ويمخر عباب البحر وأخاديد الأرض ويروض الحيوانات البرّية المفترسة، ويحمي نفسه ضدّ الحرارة والمطر ويجد أجوبةً على كلّ حالةٍ وحلا لكل موقف من الموت وحده يعلم أنّه لا فرار ولا هرب منه(Feuerbach, 1967 ,p 33).

ويرى فويرباخ أنّ هناك دلالة واضحة على علاقة بين الموت والدّين، حيث كانت المقابر معابدًا للآلهة. وعند معظم الشّعوب كانت عبادة الموتى جزءًا أساسيًا من الدّين، وعند بعضهم كانت هي كلّ الدّين. إنّ تفكيري في موت أسلافي هو أكثر ما يذكرني بموتي، يقول الفيلسوف سينيكا في رسائله في حالة الإنسان الفاني، فإنّه يكون أكثر شعورًا بالتّدين عندما يفكّر في فنائه، ويعلم أنّ الإنسان يولد ليموت في يومٍ من الأيّام. وفي العهد القديم نقرأ «يا رب اجعل لي أن أعرف نهاية الألغام والتّدبير من أيّامي» (Feuerbach, 1967, p 33).

ويقول فويرباخ «نحن لا نريد أن نموت في الله، نحن نريد أن نوسّع وجودنا إلى ماوراء مقبرتنا الأرضيّة نمدها إلى اللّانهائي، نحلم بمدّ أيدينا إلى مالا نهاية بلا حدود مكانيّة»(Feuerbach, 1850, p519).

2- الحبّ مصدرًا للدّين:

يرى فويرباخ أنّ الخوف هو الأساس الكامل والكافي لتفسير مصدر الدّين، وهو أنّ الخوف عاطفةٌ عابرةٌ، والسّبب الحقيقي في أنّ الخوف لا يعطي تفسيرًا كاملًا للدّين، هو أنّه بمجرّد زوال الخطر. فإنّ الخوف يستبدلّ بعاطفة عكسيّة، وهذه تلتصق به كما يلتصق به الخوف. وهذا الشّعور بالتّحرر من الخطر والخوف والقلق هو الشّعور بالبهجة والفرح والحب والامتنان. والواقع أنّ ظواهر الطّبيعة الّتي تثير الخوف والفزع، بوجه عام، هي

المظاهر الّتي تعود على الإنسان بالخير والفائدة. فالآلهة تدمّر الأشجار والحيوانات والإنسان بعاصفة رعديّة، هي نفسها الّتي تبعث الحياة في الحقول والمروج بالمطر. فمصدر الشّر هو أيضًا مصدر الخير، ومصدر الخوف هو أيضًا مصدرٌ للفرح. فلماذا لا يجمع الإنسان بين الضّدّين اللّذين ينبعان في الطّبيعة من أصل واحد؟ حيث يرفض فويرباخ موقف الشّعوب الّتي تعيش لحظتها فحسب، فهم شعوب ضعيفة جدًا، وهؤلاء الضّعفاء الأغبياء لا يستطيعون التّوفيق بين الانطباعات المختلفة، والّذين لا يذوقون إلّا الخوف من آلهتهم ويكرسون عبادتهم لآلهة الشر المروعة وحدها(Feuerbach, 1967, p 29-30).

ويعتقد فويرباخ أنّه لا يستطيع العثور على أساس الدّين في الخوف، أو في السّعادة، والحبّ وحده، ولكن يبحث عن الصّيغة الشّاملة الّتي تضمّ هذين الوجهين. وهذا المصطلح العالمي الّذي يشمل كلّ الجوانب ليس سوى الشّعور بالتّبعيّة، فالخوف مرتبطٌ بالموت والسّعادة مرتبطةٌ بالحياة، والخوف الشّعور بالتّبعية على كائن ما لديه القدرة على تدميري، فالسّعادة والحبّ والامتنان هي الشّعور بالتّبعيّة على كائن يمنحني اليقين بأنني أحيا، ونظرًا لأنني أحيا كجزء من أجزاء الطّبيعة أو من الله، فإنّني أحبّه. ونظرًا لأنّني أعاني، وأموت من خلال الطّبيعة، فأخافها وأقف في رهبةٍ منها؛ لان الإنسان يحبّ من يعطيه سبل الحياة والتّمتع بها ويكره من يحرمه منها أو لديه القدرة على القيام بذلك، ولكن الاثنين جنبًا إلى جنبٍ يجتمعان على حدّ سواءٍ في موضوع الدّين، فالشّيء نفسه الّذي هو مصدر الحياة هو مصدر للموت، والخير والشّر، الحياة، والموت والفقر والثّراء. ويستدلّ فويرباخ بالقرآن الكريم في السورة (26) حينما يخاطب عبدة الأوثان قائلا: هل أصنامكم تسمع ما تقولون، هل يضرونكم أو ينفعونكم، بعبارة أخرى أنّ ما يستحقّ العبادة هو الله الّذي يضرّ وينفع، يحي ويميت، يجلب الفرح والسّعادة، والخوف والتّرويع(Feuerbach, 1967, p 31).

فالله هو الكائن الرّحيم العطوف على الجميع لأنّه يجعل الشّمس تشرق على الخير والشّر، ويرسل المطر للعادل والظالم (فويرباخ، 1991، ص 50) ، ويقول بولس لقد زرعت نبات أبوللوس وسيقته ولكن الله هو الّذي أعطى أكثر. فهو إذن لم يزرع أي شيء ولم يرو أي شيء، وإنما الله هو الّذي أعطى الزّيادة.

ويقول لوثر يجب علينا أن نمدح الله ونشكره لأنّه هو الّذي يتحمّل أعباء نموّه البذرة، وأن نعترف أنّها ليست نتاج جهودنا وإنّما هي بركته وعطاياه: إن يمنحنا الخمر وكلّ أنواع الفاكهة الّتي نأكل ونشرب منها لسدّ حاجاتنا. ويقول هزيود إنّ المزارع الجاد يجني ثماره، إن أراد منحه جوبيتر ذلك، إذن حرث الأرض وغرسها وريها علي كإنسانٍ، بينما النّجاح لكلّ العمليّات ليس في يدي، وإنّما في يدّ الله ولذا فإنّه قيل أن بركة الله هي الشّيء الأساسي (فويرباخ، 1991، ص 74-75).

ومن هنا يشير فويرباخ إلى أنّ بعض الشّعوب لا يناسبها الخوف النّاجم من شيءٍ ما، الصّفات الحميدة والخيرة لهذا الشّيء، فالّذي ينبعث منه الشّر والخوف، يصبح محط التّعظيم والتّبجيل والامتنان والحب من جانب هذه الشّعوب. فإله الرّعد بين الشّعوب الجرمانيّة القديمة أو على الأقل الشّعوب النّورسيّة، هو الإله الخير الودود الإنساني الّذي يحمي الزّراعة لأنّ إله الرّعد هو إله المطر وأشعة الشّمس، وهو المحب للإنسانيّة. ومن هنا فإنّه من غير العدل أن نقول إنّ الخوف هو الأساس الوحيد للدّين (Feuerbach, 1967, p 30).

ومن هنا كانت جميع الأديان، القائمة حتّى الآن، قد ظهرت. كما يؤكّد فويرباخ عن حب الإنسان لنفسه، الحبّ إنّما هو القانون الأعلى للوجود الإنساني وهو يشكل أعمق جوهر الإنسان وقد اتخذ الحب أشكالًا خياليَّة

في جميع الأديان القائمة أمّا في الواقع كما يلاحظ فويرباخ فإن الحب هو بحد ذاته الدين الحقيقي وقد قال الحب إنما هو إله نفسه وبدون الحب لا إله (كوزيتشوف، 1987، ص 98-99).

ومفهوم الحبّ في فكرة المرآة مرتبطة بفكرة الله المتمثّلة في النّوع الإنساني، فالإنسان يرى نفسه منعكسة من خلال «الأنا»، كما لو كانت مرآة. وهذه الآنا لا تكون ممتلئة بل خاوية في أعماقها رغم مظاهر الغنى، وبالتّالي لا تجد نفسها. ومن ثمّ يولد التّناقض واللّامعنى، وإذا حدث العكس ووضعنا الأنا في أشياء حقيقيّة أعلى منها وليس دونها فسوف يكون لها الحق في الوجود والاستمرار حتى آخر حياتها. فالأنا المتحرّرة الّتي تتعلّق بأشياء أعلى منها تعكس عليها صورة الجمال والقوّة (Feuerbach, 1850, p511). إنّ الهدف الوحيد، أو على الأقل الموضوع الأساسي للدّين، هو موضوع أغراض الإنسان وحاجته... ولهذا السّبب بالذّات فإنّ هذه الكائنات الطّبيعيّة الضّروريّة جدًّا للإنسان والتي لا يمكنه الاستغناء عنها، حازت قدرًا كبيرًا من العبادة الدّينيّة. ولكن ما تعتمد عليه حاجات الإنسان وأغراضه يعدّ لنفس السّبب أماني إنسانيّة، فأنا أحتاج إلى المطر وأشعة الشّمس لنمو نباتي، وفي زمن الشّح (شح المياه) أتمنى الغيث، وفي وقت المطر الغزيرة أتمنى أشعة الشّمس. تلك رغبة لا أمتلك سبيلًا لتحقيقها، إنّها إرادة ليست لي القدرة على تحقيقها، على الأقل في وقت ما، وفي ظروف ما، وهي إرادة يحاول الإنسان تربيتها من خلال الدّين. ولكن ما لا يستطيع جسدي وقدرتي بصفة عامّة أن تحققه يكون في متناول قدرة أمنيتي، فما احتاج إليه وما أصبو إليه أحاول الوصول بالتّضرّع للآلهة (فويرباخ، 1991، ص 76-77).

الخيرية هي السّمة الجوهرية للآلهة، ولكن كيف يتمتّعون بهذه السّمة إن لم يكونوا أقوياء ومتحررين من نواميس الحماية الطّبيعية؟ أي متحررين من قيود الحاجة الطّبيعية، لم يظهروا في اللّحظات الفرديّة الّتي تفرّق بين الحياة والموت كسادة للطّبيعة بل كأصدقاء نافعين للإنسان(فويرباخ، 1991، ص 111).

وبصفةٍ عامّةٍ يلجأ الإنسان إلى الدّين ويتضرع إلى الله في أوقات المحن، وهذه الحقيقة توضّح لنا مصدر الدّين، ففي المحنة يدرك الإنسان عدم قدرته على تحقيق رغباته، فهو يجد يده مغلولة. فالآلهة قادرة على فعل ما يرغب به الإنسان، بمعنى أنّها تطيع قوانين قلب الإنسان. فعلاقة الإنسان بروحه تعادل علاقة الآلهة بالعالم المحسوس، فما يستطيع أن يفعله الإنسان في حيز إرادته وخياله وقلبه في لمحة بصرٍ وفي مكان بعيدٍ أو قريبٍ هو نفسه ما تستطيع الآلهة أن تفعله في العالم الطّبيعي (فويرباخ، 1991، ص 78).

وفويرباخ لا يذكر الأسس السّلبيّة للدّين بل أيضا الأسس الإيجابيّة للدّين. ولا ينطلق من الخوف وحده وإنّما من العواطف المخالفة والمعارضة للخوف والعواطف الإيجابية والفرح، والامتنان والحب والتّعظيم والتبجيل، كأساس للدّين. فالخوف وحده لا يخلق الآلهة وإنّما الحبّ والسّعادة والفرح والامتنان والتبجيل هم صنّاع الآلهة. لذلك نجد شعور هؤلاء الذّين تغلّبوا على الخطر يختلف تمامًا عن الشّعور النّاجم عن القائم. ففي الحالة الأولى يتركز الاهتمام على الكائن، وفي الحالة الثّانية على نفسي. ففي الحالة الأولى أغني تراتيل الثّناء، والثانية أغني للرّثاء. في الحالة الأولى أعطى الشّكر وفي الحالة الثانية أناشد. إنّ الشّعور بالخطر شعورٌ عمليٌّ غائيٌّ، والشّعور بالامتنان جمالي شاعري، والشّعور بالخطر عابر لكنّ الشّعور بالامتنان دائم وهو يشكّل أواصر المحبة والصّداقة، والشّعور بالخوف والخطر يدفع إلى العبادة من موضع الرّهبة ولا يكون إلّا في الشّدائد، بينما في الامتنان يدفع إليها موضع الرّغبة والسّعادة (Feuerbach, 1967, p 30).

3-الشّعور بالتبعيّة كمصدر للدّين:

يرى فويرباخ أنّه لا يستطيع العثور على أساس الدّين في الخوف أو في السّعادة، والحبّ وحده، ولكن يبحث عن الصّيغة الشّاملة الّتي تضمّ هذين الوجهين. وهذا المصطلح العالمي الّذي يشمل كلّ الجوانب ليس سوى الشّعور بالتّبعيّة، فالخوف مرتبطٌ بالموت والسّعادة مرتبطةٌ بالحياة، والخوف الشّعور بالتّبعية على كائن ما لديه القدرة على تدميري. فالسّعادة والحبّ والامتنان هي الشّعور بالتّبعيّة على كائن يمنحني اليقين بأنني أحيا، ونظرًا لأنني أحيا كجزء من أجزاء الطّبيعة أو من الله، فإنّني أحبّه. ونظرًا لأنّني أعاني وأموت من خلال الطّبيعة فأخفها وأقف في رهبةٍ منها. الإنسان يحبّ من يعطيه سبل الحياة والتّمتع بها ويكره من يحرمه منها أو لديه القدرة على القيام بذلك. ولكن الاثنين جنبًا إلى جنبٍ يجتمعان على حدّ سواءٍ في موضوع الدّين، فالشّيء نفسه الّذي هو مصدر الحياة هو مصدر للموت، والخير والشّر، الحياة، والموت والفقر والثّراء (Feuerbach, 1967, p 31).

ويرى فويرباخ أنّ شعور الإنسان بالتّبعيّة والمحدوديّة والعجز، حيال العالم الخارجي، يقوم في أساس الأوهام الدّينيّة. وقد كتب في مؤلفه «محاضرات في جوهر الدين» يقول «إذا نظرنا إلى أديان من يسمونهم بالمتوحّشين الّذين يحدثنا عنهم الرّحالة، وكذلك إلى أديان الشّعوب المتديّنة، وإذا نظرنا إلى روحنا بالذّات الّتي هي في منال مراقبتنا مباشرةً وبدون خداع، فإنّنا لا نجد تفسيرًا آخر للدّين، نفسانيًّا ومناسبًا وواسع الحيازة غير شعورٍ وإدراك التّبعيّة» (كوزيتشوف، 1987، ص 91).

وهكذا فإن الشعور بالتبعية هو فقط الاسم والمفهوم الشاملان بالفعل اللذان بهما نعيّن ونشرح الأرضية النفسية أو الذاتية للدين. وبطبيعة الحال لا يوجد شيء مثل الشعور بالتبعية بحد ذاته، بل شعور معين، محدد بالتبعية فحسب مثلاً (لاستخلاص أمثلة من دين الطبيعة) مشاعر الجوع أو الانزعاج، الخوف من الموت، الكآبة حين يكون الجو سيئاً، الفرح عندما يكون جيدًا، الحزن على الجهود المهدورة، على آمال حطمتها كوارث طبيعية؛ كل هذه مشاعر خاصة بالتبعية؛ لكن تصنيف ظواهر معينة من الواقع تحت أسماء ومفاهيم شمولية هي بدقة الواجب المتضمن في طبيعة الفكر والكلام (Feuerbach, 1967, p 31).

فالشّعور بالتّبعيّة عند الإنسان هو مصدر الدّين، ولكن موضوع هذه التّبعيّة أي الّتي يكون ويشعر الإنسان بتبعيته لها هي في الأصل ليست إلّا الطّبيعة (فويرباخ، 1991، ص41).

فالدّين لا يعتبر شيئًا سوى هذا الشّعور بالتّبعيّة الّذي يكون فيه الإنسان مدركًا تقريبًا بأنّه لا يوجد ولا يستطيع الوجود بدون كائن آخر مختلف عنه. وإنّ وجوده لا ينشأ في ذاته، وإذا كان فهمنا هكذا فإنه يكون ضروريًّا للإنسان كضرورة النّور للعين أو الهواء للرئتين أو الطّعام للمعدة. والإنسان كائنٌ لا يوجد دون ضوء ودون هواء، ودون ماء، ودون أرض، ودون طعام هو باختصارٍ كائنٌ يعتمد على الطّبيعة. وهذا الاعتماد في الحيوان والإنسان، ولكن عند ارتفاعه (عند الإنسان) إلى الوعي والتّخيل وعند التّفكير فيه والاعتراف به يصبح دينًا (فويرباخ، 1991، ص 41-42)

والشّعور بالاعتماد على الطّبيعة في اختلاطه مع تخيّلها ككائن شخصي، يتصرّف بطريقة تعسّفيّة هو الدّافع للتّضحية. والطّبيعة أصليّة بالنّسبة للإنسان، بمعنى حينما ينظر إليها بنظرةٍ دينيّة أكثر من كونها موضوعًا لصفاته الخاصّة به، فإنها تكون كائنًا شخصيًا حيًا ذا شعورٍ. وفي الأصل فإنّ الإنسان لا يميّز نفسه عن الطّبيعة، وبالتّالي لا يميّز الطّبيعة عن نفسه، ولهذا فإنّ الأحاسيس الّتي يثيرها أي موضوع للطّبيعة في الإنسان تبدو له في

الحال أنّها صفات الموضوع. وهكذا تنتج الآثار والأحاسيس الخيّرة والنّافعة عن طريق الطّبيعة الخيرة والصّالحة، بينما الأحاسيس الضّارّة والمؤلمة كالحرارة والبرد والجوع والمرض والألم بواسطة كائنٍ شريرٍ. وهكذا لزم على الإنسان ودون وعيٍ أن يحوّل جوهر الطّبيعة إلى شعور كائنٍ بشريٍّ ذاتيٍّ (فويرباخ، 1991، ص70).

حيث اعتقد الباتجونيّون أنّ النّجوم هي الهنود الأوائل، واعتقد أهل جرين لاند أنّ الشّمس والقمر والنّجوم كانت أسلافهم الّذين انتقلوا إلى السّماء. وهكذا اعتقد المكسيكيّون القدماء أنّ الشّمس والقمر اللّذين عبدوهما كآلهةٍ كانا أناسًا في سالف العصور ونتيجة عن هذا، أن اعتقد الإنسان أنّ الطّبيعة كائنٌ حسّاسٌ أنانيٌّ، يعاني بأقلّ من القدر الّذي يعاني به الإنسان إذا ما أخذ شيئًا منه. وعلى هذا فإنّ السّيطرة أو استخدام الطّبيعة يبدو للإنسان كما لو كان استيلاءً على حقّها أو استغلالًا لممتلكات شخصٍ آخر، أو انتهاكًا لها. ومن أجل أن يريح ضميره ويتخلّص من موضوع اعتدائه التّخيلي، ومن أجل أن يظهر أن سرقته ترجع أصلًا إلى حاجته وليس إلى عجرفته، فإنّه يقلل من متعته ويعيد إلى الموضوع جزءًا من ممتلكاته المسلوبة (فويرباخ، 1991، ص71-72).

ولهذا كان الإغريق يعتقدون بأنّه إذا قطعت شجرة فإنّ روحها تنوح وتصرخ مستغيثةً بالقدر لينتقم من المعتدي. وبالتالي فإنّه ما كان للرّوماني أن يغامر بقطع شجرة في أرضه دون أن يضحّي بخنزيرٍ لاسترضاء الإله أو الآلهة في بستانه. وهكذا كان يفعلOstiaks بعد أن يذبحوا الدّب يعلقون جلده على شجرة ويعطون له كلّ أشكال التّوقير ويعتذرون بأفضل ما يستطيعون للدّب لقتلهم إياه، فهم يعتقدون بهذه الطّريقة المهذّبة يتحاشوا الضّرر الّذي من المحتمل أن توقعه عليهم روح الحيوان. وهكذا تسترضي قبائل أمريكا الشّماليّة أرواح الحيوانات المذبوحة بالاحتفالات مشابهة، ويقول الفلبينيّون بسؤال السّهول والجبال طالبين الإذن إذا ما رغبوا في أن يعيروها، واعتبروا أن قطع أي شجرةٍ عتيقةٍ جريمةٌ. وبالكاد يجرؤ البرميّون على أن يشربوا ماء أو يطأوا الأرض بأقدامهم لأنّ كلّ خطوة وكلّ جرعة ماء تسبب ألمًا وموتًا لكائناتٍ حسّاسةٍ، نباتيّةٍ وحيوانيّةٍ (فويرباخ، 1991، ص72-73).

التّضحية تقدم الجوهر الكلّيّ للدّين بصورةٍ حسّيّةٍ، ومصدرها الشّعور بالاعتماد والخوف والشّك وعدم اليقين من النّجاح وأحداث المستقبل وتأنيب الضّمير بسبب ارتباكه خطيئةً، ولكن النّتيجة وعرض التّضحية هو الوعي بالذّات والشّجاعة والمتعة والتّيقن من النّجاح والحرّيّة والسّعادة. وكعبد للطّبيعة فإني ألاحظ التّضحية، وكسيد لها فإنّني أبتعد عن ذلك، ورغم أنّ الشّعور بالاعتماد على الطّبيعة هو المصدر ودافع الدين، فإنّ غرضه وغايته هو تحطيم مثل هذا الشّعور والاستقلال عن الطّبيعة مع أنّ قدسيّة الطّبيعة هي أساس وقاعدة الدّين عمومًا، والدّين المسيحي خصوصًا، فإنّ غايتها هي قدسيّة الإنسان (فويرباخ، 1991، ص73).

وتحوّليّة الطّبيعة، خاصّة في تلك الظّواهر الّتي تؤدّي معظمها بالإنسان لأن يشعر باعتماده عليها، هو السّبب الرّئيسيّ الّذي يجعلها تظهر للإنسان على أنّها كائنٌ بشريٌّ متعسّفٌ، والّذي يجعله يعبدها دينيًّا. وإذا ما وقفت الشّمس دائمًا في السّماء فإنّه ما كان لها أبدًا أن تضطرم نار العاطفة الدّينية في الإنسان. وعندما كانت تختفي عن عين الإنسان وتصيبه بأهوال اللّيل. وعندما كانت تعاود الظّهور ثانيةً كان يركع الإنسان على ركبتيه أمامها، وقد غلبته الفرصة لعودتها غير المتوقّعة. وقد حيّا قدماء Apalachines في فلوريدا الشّمس بترانيمٍ عند شروقها وغروبها وتضرّعوا إليها، في نفس الوقت أن تعود وتباركهم بضوئها. وإذا ما كانت الأرض تغل ثمارًا دائمًا،

فأين كان من الممكن أن يكون هناك دافع للاحتفالات الدّينيّة وقت البذر والحصاد؟ ونتيجة لتفتّحها من جديد وإغلاقها لرحمها تبدو وثمارها على أنّها عطاياها الّتي تهبها طواعيّة والّتي تجبر الإنسان على أن يكون ممتنًّا لها. والتغيرات التي تحدث في الطّبيعة تجعل الإنسان غير متيقن ومتواضعًا ومتديّنًا، فأنا غير متيقّنٍ ما إذا كان الطّقس غدًا سيكون مواتيًا لتعهداتي، وغير متيقّنٍ إذا ماكنت سأحصد ما بذرت. وعلى هذا فإنّني لا أستطيع الاعتماد على عطايا الطّبيعة مثل اعتمادي على نتيجة معصومة من الخطأ (فويرباخ، 1991، ص 68-69).

ولهذا يبقى متواضعًا مستمرًا في علاقته مع الطّبيعة ومن كلّ هذا نستنتج أنّ «شعور التّبعية هو أساس الدّين» (لينين، 1974، ص51).

وهكذا فالشّعور بالّتبعيّة هو الشّعور الحقيقيّ الشّموليّ العالميّ الوحيد الّذي يفسّر الأساس السّيكولوجي أو الذّاتي للدّين. وبالطبع ليس هناك مثل هذا الشّعور المجّرد بالتّبعيّة، وهناك أمثلة مستمدّة من طبيعة الدّين ومشاعر خاصّة له، كمشاعر الجوع أو عدم الرّاحة والخوف من الموت والكآبة عندما يكون الطّقس شيئًا والفرح عندما يكون جيّدًا والحزن على الآمال الّتي ضاعت بسبب الكوارث الطّبيعيّة. هذه كلها مشاعر خاصّة بالاعتماد والتّبعيّة (Feuerbach, 1967, p 31).

ويخلص فويرباخ إلى أنّ شعور الإنسان بالتّبعيّة، والمحدوديّة والعجز حيال العالم الخارجي، يقوم في أساس الأوهام فالشعور بالاعتماد والتبعية هو في الحقيقة "المفهوم الوحيد الذي يمكن من خلاله تحديد وشرح الأساس النفسي أو الذاتي للدين"

خاتمة:

يقدّم فويرباخ تفسيرًا سيكولوجيا للدّين مؤكّدًا أنّ الدّين الإنساني قائمٌ على الشّعور بالتّبعيّة، فالشّعور هو أساس الدّين. والقلب هو جوهر هذا الدّين فالإنسان بطبيعته كائنٌ متديّنٌ، ومن هنا يمكننا فهم الغموض الّذي يعترى طبيعتنا البشريّة. وهذا التّفسير السّيكولوجي للدّين يتمثل في ان الدين يغرب الإنسان عن ماهيته النّوعيّة فيسقط هذه الماهية في الدّين بشكل إله يتّصف بصفات الإنسان الكامل اللّامتناهي والّتي هي أساس مواصفات النّوع وهكذا يستلب الإنسان في الله واقعه بالذّات وجوهره الّذي يصبح غريبًا عنه وينفصل عن النوّع ويدخل في تعارض معه فالدين تعبر واسقاط لرغبات البشر وامنياتهم وهذه الرغبات هي رغبات خيالية وليست حقيقة كما يتعلق هذا التفسير السيكولوجي بثلاثة مصادر جوهريّة تفسّر معنى ومفهوم الدّين الإنساني عند فويرباخ هي الخوف والحبّ والشّعور بالتّبعيّة. ومن هنا يتجاوز فويرباخ الرصد التاريخي للدين الى التحليل السيكولوجي والتناول الفلسفي وبذلك يعد فويرباخ متقدّمًا على فرويد الّذي يعدّ امتدادًا لموقف فويرباخ السيكولوجي واستمرارًا له، حيث يستخدم التّحليل النّفسي لتأكيد وتعميق أفكار فويرباخ وانثروبولوجيته الدّينيّة التي تتجاوز الفهم الضيق والمتعصب لدين او عقيدة معينة وتحاول تأسيس دين انساني يقوم على الحب والقلب ويتجاوز اللاهوت الى انثربولوجيا وهذا ما يجعل فويرباخ يتفق مع كل المحاولات الجادة التي تسعى لتأسيس علم النفس الديني وعلم الاجتماع الديني وفلسفة الدين حيث نجد افكار فويرباخ تظهر لدى بعض علماء مثل دوركايم وفرويد.

قائمة المراجع:

- فلاديمير، لينين.(1974). الدفاتر الفلسفية 2. بيروت: دار الحقيقة.
- فويرباخ، لودفيغ. (1991). أصل الدين، (ط1). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- كوزنيتشوف، فاسيلي. (1987). بصدد مؤلف أنجلس لود فيع فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية. موسكو: دار التقدم.
- لودفيغ، فويرباخ. (2017). جوهر الايمان بحسب مارتن لوثر، (ط1). بيروت: دار الرافدين.
- هنري، آفرون. (1981). فويرباخ. (ط1). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- Feuerbach L, (1850): La mort et l'immortalité, Qu'est-ce que la religion?: d'après la nouvelle philosophie allemande, Paris : Ladrange, Garnieb frères.
- Feuerbach L, (1968), L'Essence du christianisme, Paris : éd Maspero.
- Feuerbach L. (1967), **Lectures on the Essence of Religion,** New York: Harper & Row.
- Helmut W. (2003), Is Man's Wish the Father of the Gods? Comments on the Theogony by Ludwig Feuerbach, http://ludwig-feuerbach.de/index.html?/ theogonie.htm.